كن معاذ المجلس

تصور أنه نُقِل إليك عن مجلس من المجالس أنك ذُكِرت فيه، فوقع فيك أحد الحاضرين، فلمزك أو افترى عليك، فباغته أحد مَنْ حضر، فانبرى في الدفاع عنك، فأخذ يزكيك، ويفنِّد هذا الكلام الذي قيل فيك، فما شعورك تُجاه هذا الرجل المُدَافِع؟

لا شك أنك ـ بطبيعة النفس البشرية ـ ستأنس لهذا الرجل، وتعده واثق المودة، صادق الإخاء، جزل المروءة، ولن تنسى وقفته في غَيبتك؛ فقد جبلت النفوس على محبة من أحسن إليها.

إذن ـ فضلاً ـ تأمل معي هذا الموقف:

الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين خلِّفوا في غزوة تبوك، وقد تاب الله عليهم، يذكر قصته حين كبر سنه، وكُفَّ بصره، فيذكر أحداثها وتفاصيلها، فلا يُغْفِل ذكرَ موقف حصل في تلك الغزوة، هذا الموقف يذكره أهل الحديث والسير لا يجاوز سطرين، مما يدل على أن مدته الزمنية هي أقل من دقيقة تقريباً، لكنَّ كعباً لم ينسه، فما هذا الموقف؟!

يتحدث كعب عن هذا الموقف فيقول ﵁: «لم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «**ما فعل كعب؟**» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه، والنظر في عِطفيه! فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً»(١).

فانظر كيف أثَّرت هذه الكلمة اليسيرة في قلب كعب؛ فلم ينسها، وقد مضى عليها سنين متطاولة؛ وما ذاك إلا لعظيم أثرها في نفسه.

إن من الشجاعة الممدوحة، والبطولة المحمودة أن تقف أمام هذا الطاعن في أخيك، فتبين خطأه، وتكشف عواره، وإنه لضعف ومهانة أن تسكت وأنت تعلم أن هذا كذب وافتراء، وأشد منه أن تمالئ هذا الطاعن على البغي والعدوان؛ فهذا خذلان ولؤم وخور.

ومن جميل ما يذكر هنا ما ذكره الحسن بن أحمد بن الليث قال: سمعت أحمد بن حنبل، وسأله رجل فقال: بالري شاب يقال له: أبو زرعة.

فغضب أحمد، وقال: تقول شاب؟ كالمنكر عليه، ثم رفع يديه وجعل يدعو الله لأبي زرعة، ويقول: اللَّهُمَّ انصره على من بغى عليه، اللَّهُمَّ عافه، اللَّهُمَّ ادفع عنه البلاء، اللَّهُمَّ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

اللَّهُمَّ، في دعاء كثير[١].

فتأمل موقف الإمام أحمد، وكيف أنه غضب من كلمة: (شاب) وأحس أن فيها انتقاصاً من العالم الكبير أبي زرعة، وأبو زرعة كان يصغر الإمام أحمد بأكثر من خمس وثلاثين سنة، ومع ذلك نصره، ودعا له، فرحم الله هذا الإمام الكبير.

فلا يفوتنك أن تكون شجاعاً؛ فإذا حضرت مجلساً ثم تجاوز أحدهم، فوقع في أحد بغير حق فلا تسكت؛ بل كن معاذ المجلس، وصدق القائل:

وليس أخي من وَدَّني رأي عَيْنه ... ولكنْ أخي من وَدَّني في المَغايب[٢]

ومن المواقف التي تَبْهر من يقرؤها في هذا الباب، ولا ينقضي العجب من حسنها وجمالها، ولا تزيدك قراءتها إلا اندهاشاً بصاحبها، موقفُ شيخ الإسلام ابن تيمية مع أولئك الذين سعوا به إلى السلطان، وأفتوا بقتله، ثم خلا السلطان بابن تيمية، وأخبره بمكيدة هؤلاء له، واستشاره فيهم، فماذا قال ابن تيمية؟

يحكي الموقف ابن عبد الهادي، فيقول: «سمعت الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر أن السلطان لما جلس بالشباك

(١) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (١/ ٣٤١).
(٢) في حماسة البحتري (ص٣٦٠)، نسب لصالح بن عبد القدوس، وفي سمط اللآلئ (١/ ٢٧١) نسب لبشار بن برد، ونسب لغيرهما.

أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم».

قال ابن تيمية: «ففهمت مقصوده، وأن عنده حنقاً شديداً عليهم لما خلعوه، وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فشرعت في مدحهم، والثناء عليهم، وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك!

أما أنا فهم في حِلٍّ من حقي ومن جهتي، وسكَّنت ما عنده عليهم».

قال ابن عبد الهادي: «فكان القاضي زيد الدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية؛ لم نُبقِ ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا»[(١)].

يدافع عنهم، وقد أفتوا بقتله؛ ولم يقل: هذه فرصتي فيهم قد سنحت!

بل يثني عليهم ويشكرهم، وليس ثناء مألوفاً؛ بل يفخِّم أمرهم، ويعظِّم شأنهم بأنك أيها السلطان لن تجد مثلهم في دولتك لو ذهبوا!

إنها لجلالة باهرة، وعظمة باذخة نادرة، ورحم الله تلك الروح الزكية الطاهرة.

---

(١) العقود الدرية (ص٢٩٨ ـ ٢٩٩).